مجلة الرائد

العدد : ١٩٢ الموافق في ربيع أول ١٤١٨ هجري ١٩٩٧/٨ ميلادي

عنوان المقال : من مظاهر التولي	بقلم : د.أ.مصعب

يقول الله عز وجل : { **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ❋ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** } [الأنفال:١٥-١٦]. هذه الآية الكريمة - وسورة الأنفال عموماً - تؤرخ لحدث عظيم في تاريخ المسلمين ، إنه غزوة بدر الكبرى ، التي كانت فيصلاً بين عهدين متباينين ؛ عهد الاستضعاف وعهد القوة والنصر . وفي ثنايا الآية تحذير وإنذار من مغبة تولي المسلمين أمام زحف العدو ، وأنه في حالة وقوع ذلك - دون مبرر شرعي - فالعاقبة هي غضب الله وعذاب جهنم .

لكن الآية تتجاوز الحدث في ظرفه الزماني والمكاني ، لتلقي بضوئها على كل مظاهر التولي أمام زحف الأعداء في كل زمان . وهذه الميزة هي التي أوحت إلي بالحديث عن بعض هذه المظاهر في ظروفنا المعاصرة ، حيث يتعرض المسلمون لأنواع متعددة من الزحوف ، استطاعت أن تنال من واقعنا الفكري والأخلاقي والسياسي بسبب تولي وخذلان كثير من مفكري وساسة العرب والمسلمين ، وإليكم الأمثلة باقتضاب :

المثال الأول :

من أنواع الزحوف التي تتعرض لها بلاد المسلمين منذ زمن بعيد **الزحف الفكري** ؛ وهو زحف منظم يستهدف اختراق جدار البنية الفكرية للمسلمين ، وزرع السموم المدمرة في أوساطهم ، وتشكيكهم في دينهم وثوابت حضارتهم ، وتقديم البدائل الفكرية الغربية في قوالب مغرية إلى أبعد درجات الإغراء ، وذلك باستخدام جميع وسائل الدعاية والإشهار المتاحة ، من مؤسسات إعلامية ، وثقافية ، ومطبوعات ، ومنشورات مختلفة...

لقد تمكن الزحف الغربي بالفعل من زحزحة البنيان الفكري لكثير من شباب المسلمين ، والنيل من عدد من الثوابت التي كان الإسلام قد رسخها لدى أجيال سلفنا الصالح ، إلى درجة أن أضحى كل شيء لدى المثقفين من بني جلدتنا قابلاً للنقاش والمساومة حتى وإن تعلق الأمر بنصوص معصومة !.

في مقابل هذا الزحف الخطير تقف طائفة من مفكرينا لائذة بالصمت ، وقد كبحت جماح أقلامها عن الرد أو البيان ، وهي تعاين نتائج الغزو وفعله المدمر . بل إن عدداً منهم فتح ذراعيه لتلك الأفكار ، وجعل من نفسه بوقاً للدعاية لها ، وبذل الجهود ، كل الجهود ، في شرحها وتوضيحها والترجمة لها في

شكل سمسرة رخيصة هدفها استدرار عطف وتقدير الأسياد ، والدخول في قائمة المفكرين المنفتحين الأصدقاء... مخافة أن يزج بأسمائهم ضمن قائمة المناوئين أو المتعصبين والمتطرفين !

بذلك مهدوا أوسع السبل أمام الزحف الفكري ليصل إلى أكبر عدد ممكن من الشباب المثقف ، وعامة فئات المجتمع ، ولكنهم في الوقت نفسه رسموا لأنفسهم أبشع صورة للتولي الفكري المخزي...!

المثال الثاني :

لا يمكن الحديث عن أشكال الزحف الغربي دون ذكر **الزحف الأخلاقي** الذي يغزو بلاد المسلمين اليوم . إنه جزء من مخطط التغريب ، محكم الحلقات ، هدفه إبعاد كل أشكال الهوية الحضارية عن الشعوب الإسلامية ، وسلخها عن جلدها الأصيل المتميز ، وإلباسها مسوحاً راقة ، توحي بالتقدم والعصرنة ، وهي في العمق مسخ لشخصيتها وهويتها الأصيلة .

ولعل نتائج هذه المخططات وتجليات الزحف الأخلاقي لا تخفى على ملاحظ ، ونحن نرى أخلاقنا الرفيعة كالعدل والصدق والأمانة والعفة ، والتكافل والتعاون على البر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... تنزوي في زوايا النسيان لتحل محلها أخلاق الظلم والكذب والخيانة والعهر والفجور والأنانية والانتهازية والغدر... وهي أخلاق أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها كانت إلى عهد قريب شيئاً نشازاً ، لا يتخلق بها إلا الشواذ من الناس .

لقد زحفت أخلاق الغرب ، ووجدت طريقها السالك المعبد إلى قلوب وأفئدة أبناء المسلمين ، وتلبستهم كما يتلبس الشيطان الإنسان الضال ، فاغتربت أخلاق المسلمين الفاضلة ، وسلوكاتهم المتميزة ، وحلت محلها أخلاق سائبة منحطة يأنف منها العار !

لكن ماذا كان رد فعل مفكرينا وأولياء أمورنا السياسيين ؟

في كثير من الأحيان لم يجد المفكرون والسياسيون الحاذقون أي حرج أو انزعاج في احتضان أخلاق الغرب ، واعتبروا - إن قصداً أو بغير قصد - أن الزحف الأخلاقي إنما هو فتح مبين على بلاد المسلمين ، سيجلب لها مظاهر الازدهار والرخاء الاجتماعي ! كما كانوا يعتقدون في الحملات العسكرية سابقاً !

إنهم بمواقفهم المخجلة قد أداروا أدبارهم للزحف ، وتركوه يتوغل إلى أعماق البلاد الإسلامية ، بل مهدوا له السبل والمسالك ليصل إلى الأدغال والأرياف والوديان... ليقتل فيها الطهارة والعفة والفطرة السليمة النقية ، وعمدوا إلى الدعاية له بكل وسائل الدعاية والإشهار ، باسم الحرية

والديمقراطية أحياناً ، وباسم التحضر والتطور والعولمة أحياناً أخرى . فماذا نسمي هذا الفعل الإمعي إذا لم نسمه تولياً أخلاقياً ذليلاً !؟

المثال الثالث :

من نافلة القول أن نؤكد أن السياسة المتبعة في بلاد المسلمين غربية ، سوى أنها مترجمة بتلوينات حربائية بحسب تربة البلد الاجتماعية والفكرية والتاريخية... وما يقتضيه كل ذلك من تشكيل وتلوين... فالساسة في بلادنا لا يألون جهداً في سبيل الوصول بالزحف السياسي الغربي وأهدافه إلى أكبر درجة من الاختراق ، والعمل على إدماج الشعوب الإسلامية في المنظومة السياسية الغربية ، والاقتيات بمفرداتها ومبادئها ، وغرس مناهجها وقواعدها ، وتطبيق خططها... والهدف من وراء ذلك لدى ساستنا - بطبيعة الحال - هو الإبقاء على المستوى الرفيع من التبعية السياسية ، في مقابل الحفاظ على بعض حطام الدنيا الزائل ! ضاربين عرض الحائط بالمصالح الحيوية والأساسية للبلاد الإسلامية ، جاعلين أخطر قضاياها في أدنى مستويات الاهتمام ، إن لم نقل في مستوى الصفر !.

أدارت الأنظمة السياسية في أغلب البلدان العربية والإسلامية أدبارها للزحف الغربي ، ووقفت موقف الحارس الأمين ، والمنفذ المخلص للمخططات السياسية الغربية ، بدلاً من مواجهتها والتصدي لها بما تقتضيه الظروف من حنكة وشجاعة ، وبما تستدعيه مصالح الأمة الإسلامية والشعوب الإسلامية من مراعاة لمقومات دينها ودنياها ، وهويتها وشخصيتها... وبالجملة مراعاة دعائم حضارتها.

نتيجة لكل ذلك ضمن الغرب استمرارية زحفه السياسي وسلامته وأمنه ، وذيلية كثير من الأنظمة العربية والإسلامية وتبعيتها ، والتي لا هم لها سوى التكبير والتهليل باسم سادتها وكبرائها الغربيين ، وإبداء مظاهر الإخلاص والخضوع... وهي تسجل على جبينها السياسي بمداد الخزي والعار معالم المصلحية الضيقة والانتهازية المقيتة ، وإن شئتم معالم التولي السياسي الحقير !

إن هدفي من مقالتي هذه ليس تعداد مظاهر التولي أمام أنواع الزحوف ، وذكرها بأسمائها ، أو حصرها ، فذلك ما لا يسمح به المقام ، ولكن قصدي أن مظاهر التولي لا تزال موجودة في كثير من بني جلدتنا من مفكرين وسياسيين وغيرهم... ولم تستطع سنوات القهر والإذلال الداخلي أن توقظ خلايا الشعور والإحساس عندهم ، وتشعرهم بالمخاطر الداهمة التي تزحف على بلادنا الإسلامية لتقضي على وجودنا ، كأمة ذات كيان وحضارة ، ولم تستطع أن تفتح عيونهم وبصيرتهم ليشاهدوا فئات مخلصة من إخوانهم وأبنائهم وهم يحاولون أن يتصدوا لحملات الغزو والزحف ، فيتعاونوا معهم ويدعموا مواقفهم

ومبادراتهم . فنقول لهم : إن الحال أخطر وأعظم من فتات الموائد التي يغريهم بها شياطين الغرب والشرق ، وإن العاقبة أخزى : { **ومن يولهم يومئذ دبرَه إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** } .